• من النيل إلى الفرات مروراً بالخليج العربي

الثقافة العربية.. حائط صد هجمات التطرف والإرهاب



الإبداع الفني شكّل رافداً أساسياً لمقومات الهوية العربية.
تصوير: إريك أرازاس

محمد عبدالمقصود ـ دبي

«الإنسان قبل المكان»

«الإنسان قبل المكان».. عبارة للمغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، مثلت نهجاً رئيساً في فكر صانع القرار الإماراتي، وأرست جانباً مهماً من دعائم الاهتمام بالموارد البشرية في الدولة.

على الرغم من أن الإرهاب ودعوات الفكر الهدام والجماعات الإرهابية المضللة، ليست بالكيانات الجديدة، وهي كيانات تتلوّن وتتبدل وتبقى في تحور دائم، فإن الهوية والثقافة العربية والإسلامية وما ارتبط بهما من فنون وآداب، كانت دوماً حائط الدفاع والصد الأول، أمام تلك الهجمات التي بقيت في شتى العصور بمثابة نار تحت الرماد، أو خلايا جرثومية خامدة بانتظار ظروف مواتية تُنشطها.

المجتمع العربي في العصر الجاهلي لم يخلُ من الإرهاب، بل كان بمثابة أسلوب ونمط حياة لدى كثير من الجماعات التي احترفت طرائقه، لدرجة أن بعضها كان له نتاج أدبي مضلل، وهو أمر استمر في عصور صدر الإسلام، والأموي، والعباسي، وما تلاها، عبر موجات عديدة، لكن في كل مرة كانت الثقافة والفنون وتخلعلها الأصيل في وعي الفرد والمجتمع بمثابة الكاسر الذي تتحطم أمامه تلك الموجات، بعد أن يختلط فيها غالباً ثالوث المال والسياسة والنفوذ، وإن تدثرت بعباءة الدين.

وكما الميكروبات الخبيثة فإن اللحظة الأنسب دوماً للمهاجمة، ومعاودة النشاط، هي تلك الفترات التي يمر فيها الجسد ببعض الضعف، فكانت فترات ومراحل عدم الاستقرار السياسي والأمني هي الساحة الزمنية الأنسب، الأمر الذي تبدى بشكل خاص في أواخر العصرين الأموي والعباسي، وسواهما، قبل أن يعود الإرهاب بثوب جديد وأدوات وحيل معاصرة، دون أن يتخلى عن جوهره وأغراضه وديدنه في قلب الحقائق، واستغلال الدين لأهداف مروجيه.

ومع تجدد نشاط دعاة التطرف والإرهاب في الجسد العربي، كانت الثقافة العربية مطالبة بتجديد هذه المواجهة، وهو ما تجلى بالفعل على الأرض، لدرجة أن عدد الفعاليات الثقافية والفنية وإصدارات الكتب والدوريات الصحافية والقنوات الإعلامية المختلفة، شهد زيادة ملحوظة في بعض البلدان العربية، بما فيها تلك التي شهدت حالة من عدم الاستقرار السياسي أو الأمني.

المثقفون والفنانون العرب كثير منهم أضحى على قلب فكر واحد، يهدف إلى معاودة هزيمة الإرهاب ولفظه، ودحر دعاواه المضللة، عبر لغة الحوار والإبداع والفكر المستنير، وهي اللغة التي جعلت البعض يتوسم أن العام الجديد 2015 سيكون حاسماً في تلك المواجهة.

الفكر مرتكز رئيس

صاحب السموّ الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، نائب رئيس الدولة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، الذي أمر بإطلاق مهرجان دبي للشعر ليستضيف 100 شاعر من مختلف أنحاء العالم، وإطلاق معرض «آرت دبي» العالمي، وتحويل دبي إلى متحف مفتوح يبهر العالم، وغيرها من المبادرات، لم يخل أحدث نتاجه الأدبي والفكري من الإحالة إلى أهمية الثقافة والفنون في هذا الإطار، خصوصاً كتابي «ومضات من فكر» و«ومضات من شعر».

«نشر ثقافة المحبة والتسامح والسلام في أوساط الشباب العربي والمسلم وسيلة مهمة للوقوف في وجه «الإرهاب»، حقيقة أكدها سموّه، ولعلها مستلهمة من إحدى الدعائم الرئيسة لنهج صانع القرار الإماراتي، والاتكاء على تنمية واستثمار الموارد البشرية، حينما صرح المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، بأن الحضارة الحقيقية تقوم على «الإنسان قبل المكان».

ولم يقف صاحب السموّ الشيخ محمد بن راشد، في هذا الصدد، عند حدود المنتج الأدبي والفكري، بل إنه عد الفكر أول مرتكزات ثلاثة، أشار إلى أنه يجب التعويل عليها لمواجهة أصحاب الأفكار الظلامية، حيث لفت في مقال لسموّه، نشر في 28 سبتمبر الماضي، إلى أنه لابد من مواجهة دعاوى الجماعات الإرهابية «بفكر مستنير، منفتح، يقبل الآخر ويتعايش معه، فكر مستنير من ديننا الإسلامي الحنيف الصحيح الذي يدعو للسلام، ويحرّم الدماء، ويحفظ الأعراض، ويعمر الأرض، ويوجه طاقات الإنسان لعمل الخير ولمساعدة أخيه الإنسان».

دور الثقافة المحوري في مواجهة الإرهاب والأفكار المضللة هو ما يؤكد عليه أيضاً وزير الثقافة والشباب وتنمية المجتمع، الشيخ نهيان بن مبارك آل نهيان، الذي قال لـ«الإمارات اليوم»، إن «زخم الفعاليات الثقافية والفنية الذي يتميز به المشهد الإماراتي ليس رفاهية أو مشهداً تجميلياً لائق الإنجازات الاقتصادية والمادية والعمرانية وغيرها، بل هو جزء أصيل وأساس لا ينفصل عن سائر الأسس التي تقوم عليها حضارة الدولة».

علاقة شرطية

وليس من قبيل المصادفة أن يكون رئيس المجلس الوطني الاتحادي محمد المر، هو أحد أهم الأدباء العرب المعاصرين عموماً في مجال القصة، وفي منطقة الخليج بصفة خاصة، كما أنه أحد أكبر مقتني الأعمال المتميزة في فن الخط العربي، الأمر الذي يدلل على أن قضايا الثقافة والفكر والأدب، تفرض حضورها على مائدة صانع القرار الإماراتي.

المر من جانبه يرى ارتباطاً شرطياً بين سيادة الأفكار المضللة والهدامة من جهة، وبين اضمحلال الثقافة والفنون من جهة أخرى، لكنه يشير إلى أن الإشكالية قد تكمن في غياب الآليات الناجعة في وصول النتاج الثقافي والفني بالشكل المثمر، «إذ إن بعض التكوينات الاجتماعية تبقى أكثر انغلاقاً على نفسها، لاسيما أن دعاة الفكر المتطرف يحرصون على هذه الانعزالية، التي تشكل بيئة مثالية لانتشار أفكارهم».

وأضاف المر: «تبقى الثقافة والفنون على أنواعها المختلفة الوسيلة الأنجع لمجابهة الفكر المتطرف، وهو أمر يتم، ليس فقط من خلال مقارعة الحجة بالحجة، بل أيضاً عبر تحصين المجتمع من خلال التوعية والتثقيف، والارتقاء بالذائقة الجمالية واستلهام روح الفنون وقدرتها على السموّ بالذائقة الجمالية للفرد، ومن ثم المجتمع».

وعي المثقف

56 فعالية ثقافية وفنية أقامتها إحدى أهم القلاع الثقافية العربية، هي «ندوة الثقافة والعلوم»، وهو أكبر عدد أقامته من الفعاليات منذ تأسيسها في ثمانينات القرن الماضي، وهو ما يحفز باتجاه طرح سؤال حول مدى ارتباط الزيادة الكمية في نشاطات «الندوة» بالمشهد السائد في المنطقة، أجاب عنه لـ«الإمارات اليوم»، رئيس مجلس إدارة ندوة الثقافة والعلوم، سلطان صقر السويدي، بالتأكيد على أن «الثقافة والفنون والإبداع لا يمكن أن تكون بمعزل عن أهم القضايا التي تفرض حضورها على المجتمع».

وأضاف: «حينما تستشعر أن جرثومة أو مجموعة من الجراثيم تهاجم بدنك الصحيح، فإنك تبقى مطالباً بمزيد من الجهد للحفاظ على الحالة الإيجابية لهذا الجسد، وهو أمر يتم بشكل بعيد عن التكلف، لاسيما أننا أمام ظاهرة تصح معها النصيحة الطبية المعروفة: الوقاية خير من العلاج، فتنسحب على تدعيم البنية الثقافية والفكرية للفرد الذي يبقى نواة لمجتمع لا تهزه أباطيل ينسجها أصحاب فكر مغلوط».

وعلى الرغم من أنها تعرضت لمحاولات طمس هويتها الأصيلة، ومكانتها الرائدة في الثقافة والفكر والفنون، فإن مصر ظلت منارة للإشعاع الحضاري، والفكر الديني الوسطي المعتدل، الذي عنوانه الأزهر الشريف، وجاء زخم معرض القاهرة الدولي للكتاب في دورته الـ45، ثم عودة مهرجان القاهرة السينمائي وإقامته داخل أسوار قلعة محمد علي التاريخية، بمثابة رسالة مؤكدة على أن موجة الإرهاب مهما طال أمدها ستبقى «عابرة»، لأنها أضعف من أن تقوى أمام المجتمعات المستنيرة.

الإرهاب موجة عابرة

وزير الثقافة المصري الدكتور جابر عصفور، قال لـ«الإمارات اليوم»: «إنه منذ اليوم الأول لأدائه اليمين عقب توليه حقيبة (الثقافة)، عدّ نفسه أمام مهمة وطنية وقومية توازي تلك التي يؤديها جندي في صف المعركة الأول، أمام مغتصب الأرض والعرض والوطن بأكمله».

وأضاف عصفور، الذي أعلن تدشين أربعة قصور للثقافة في محافظة جنوب سيناء، التي تعد المدينة المصرية الأكثر تعرضاً لهجمات إرهابية: «من الممكن أن نُهزم عسكرياً أو سياسياً ونعود لنغير موازين المعركة بعد فترة ما، لكن الهزيمة الفكرية تبقى ذات آثار أبعد، ونحن في حربنا ضد الإرهاب تبقى الثقافة والفنون والفكر المستنير بالفعل حائط دفاعنا الأول، وهو حائط شديد الصلابة في حال ثقافتنا العربية، لأنها بالفعل جزء أصيل في بناء هوية الإنسان العربي».

وعلى الرغم من أن النتاج الفني تأثر في بعض البلدان العربية بالظرف السياسي والأمني، فإن العديد من الفنانين أيقن أنه مطالب بالعطاء الفني أكثر من أي وقت مضى، وهو ما تؤكده المخرجة التونسية الحائزة جائزة أفضل فيلم قصير في مهرجان دبي السينمائي، في دورته الأخيرة، هند بوجمعة: «كنا أمام حالة كاد فيها الوطن أن (لا يكون)، وأضحى المغرب الأبسر للفنان الحقيقي هو الانسحاب، في ظل ظروف غير مواتية للإبداع، لكن الفنان التونسي اختار أن ينتصر للحياة، رغم كل محاولات تحييده عن الصراع الفكري والأيديولوجي من القوى الراديكالية». «عودي لن يكسره الإرهاب، وأطمح للعب على أوتاره في بغداد، وعمق حضارة شعب دجلة والفرات ستفوت الفرصة على دعاة الإرهاب المتربصين به»، تصريح لعازف العود، الفنان العراقي نصير شمة، لـ«الإمارات اليوم»، أكد فيه إيمانه الشديد بأن «العمق الثقافي والفكري، وميراث الفنون الأصيلة أقوى من بارود الإرهاب، وقوى التطرف، حتى وإن حققت الأخيرة نصراً مرحلياً».

وأضاف شمة، الذي حمل أحدث حفلاته الموسيقية اسماً موحياً ومحيلاً لما يأمل أن يسود في وطنه، هو «بانتظار الفرح»، أن «الهوية الوطنية الموحدة بكل ملامحها الاجتماعية والثقافية والفنية هي القادرة على حماية العراق، كما أنها قادرة على حماية الوطن العربي الأكبر وتأمين انتصاره على قوى الظلام التي تريد العودة به إلى أزمنة العصور الوسطى».

2015.. عام الحسم

المثقفون والفنانون العرب كثير منهم أضحى على قلب فكر واحد، يهدف إلى معاودة هزيمة الإرهاب ولفظه، ودحر دعاواه المضللة، عبر لغة الحوار والإبداع والفكر المستنير، وهي اللغة التي جعلت البعض يتوسم أن العام الجديد 2015 سيكون حاسماً في تلك المواجهة.

الفكر المعتدل

على الرغم من أنها تعرّضت لمحاولات طمس هويتها الأصيلة، ومكانتها الرائدة في الثقافة والفكر والفنون، إلا أن مصر ظلت منارة للإشعاع الحضاري، والفكر الديني الوسطي المعتدل، الذي عنوانه الأزهر الشريف، وجاء زخم معرض القاهرة الدولي للكتاب في دورته الـ45، ثم عودة مهرجان القاهرة السينمائي وإقامته داخل أسوار قلعة محمد علي التاريخية، بمثابة رسالة مؤكدة على أن موجة الإرهاب مهما طال أمدها ستبقى «عابرة»، لأنها أضعف من أن تقوى أمام المجتمعات المستنيرة.

تجديد المواجهة

مع تجدّد نشاط دعاة التطرف والإرهاب في الجسد العربي، كانت الثقافة العربية مطالبة بتجديد هذه المواجهة، وهو ما تجلى بالفعل على الأرض، لدرجة أن عدد الفعاليات الثقافية والفنية وإصدارات الكتب والدوريات الصحافية والقنوات الإعلامية المختلفة، شهد زيادة ملحوظة في بعض البلدان العربية.



نهيان بن مبارك آل نهيان: «زخم الفعاليات الثقافية والفنية في الإمارات جزء أصيل من معالم الحضارة المعاصرة للدولة».



محمد المر: «نشر الثقافة والفنون واستلهام روحها وقدرتها على السموّ بالذائقة الجمالية للفرد، ومن ثم المجتمع، تبقى الوسيلة الأنجع لمجابهة دعاة الفكر المتطرف».



سلطان السويدي: «تدعيم البنية الثقافية والفكرية للفرد يبقى بمثابة نواة لمجتمع لا تهزه أباطيل ينسجها أصحاب فكر مغلوط».



جابر عصفور: «من الممكن أن نُهزم عسكرياً أو سياسياً ونعود لنغير موازين المعركة بعد فترة ما، لكن الهزيمة الفكرية تبقى ذات آثار أبعد».



نصير شمة: «العمق الثقافي والفكري، وميراث الفنون الأصيلة أقوى من بارود الإرهاب وقوى التطرف، حتى وإن حققت الأخيرة نصراً مرحلياً».